

مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

التصوير، بل هي ناتجة من تطور داخلي في قلب عاصمة الشرق المسيحي ربما اتصل بالاعتقاد أن الهزائم التي تعرض لها البيزنطيون على يد المسلمين العرب مردها سخط الله على المملكة التي «تعبد الأوثان» عبر إكرام الأيقونات.

يتصل الدفاع عن الصور المقدسة بالقدّيس منصور ابن سرجون المعروف بحسب اسمه الرهباني بيوحنا

الدمشقي (أواخر القرن السابع) الذي تعيّد له الكنيسة المقدّسة في الرابع من شهر كانون الأول.

ويشكّل
الدمشقي نموذج
اللاهوتي

الأنطاكي ذي الأصل العربي والثقافة اليونانية. وقد ذهب بعض المؤرخين، انطلاقاً من سيرة القدّيس، إلى أن الدمشقي تربى مع الخليفة يزيد ابن معاوية (٦٨٠-٦٨٣) واضطلع، مثل جدّه ووالده، بمنصب رفيع في البلاط الأموي. مهما تكن صحة هذا الرأي، الذي يبدو أن المصادر العربيّة لا تؤيّدّه إذ تتكتم عن اسم يوحنا كأحد موظفي البلاط، الأكيد أن الدمشقي غادر عاصمة الأمويين إلى دير مار سابا في فلسطين حيث ترهّب ووضع معظم

القدّيس يوحنا الدمشقي كمدافع عن الأيقونات

يعجز مؤرخو الحقبة البيزنطية، رغم ما بذلوه من حثيث الجهد في استقرار المصادر، عن تحديد الأسباب التي أدت إلى نشوب ما يُعرف بـ«حرب الأيقونات» في القرنين الثامن والتاسع. الأكيد أن

أجواء الحكام وكبار موظفي البلاط في القسطنطينية راحت تميل إلى معاداة الأيقونات حوالى العام ٧٢٦. ثم سرعان ما ترسّخ هذا الموقف في حملة

على الصور المقدّسة تصدّت لها الأوساط الرهبانيّة خصوصاً، وقد تواصلت هذه الحملة على شيء من التقطع حتى العام ٨٤٣ متخذة طابع الخلاف اللاهوتي الحاد. ورغم أن حجج معادي الأيقونات تركّزت، في البدء، على أن إكرام الصور المقدّسة هو ضرب من عبادة الأوثان التي نهى عنها الله في العهد القديم، ينزع الدارسون اليوم إلى القول أن الحملة على الأيقونات في الإمبراطورية البيزنطيّة لا تعكس تأثراً بالموقف الإسلامي من

الرسالة

(غلاطية ٣: ٢٣-٢٩)

(١: ٤-٥)

يا إخوة قبل أن يأتي الإيمان كنّا محفوظين تحت الناموس مغلقاً علينا إلى الإيمان الذي كان مزمعاً إعلانه* فالناموس إذا كان مؤدّباً لنا يرشدنا إلى المسيح لكي نبرر بالإيمان* فبعد أن جاء الإيمان لنا بعد تحت مؤدّب* لأن جميعكم أبناء الله بالإيمان بالمسيح يسوع* لأنكم أنتم كلكم الذين اعتمدتم في المسيح قد ليستم المسيح* ليس يهودي ولا يوناني. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر ولا أنثى. لأنكم جميعكم واحد في المسيح يسوع* فإذا كنتم للمسيح فأنتم إذا نسل إبراهيم وورثة بحسب الموعد* وأقول إن الوارث ما دام طفلاً فلا فرق بينه وبين العبد مع كونه مالك الجميع* لكنّه تحت أيدي الأوصياء والوكلاء إلى الوقت الذي أجله الأب* هكذا نحن أيضاً حين كنّا أطفالاً كنّا متعبدين تحت

العدد ٢٠٠٥/٤٩

الأحد ٤ كانون الأول

تذكار القديسة العظيمة

في الشهيديات بربارة

وأبينا البار يوحنا الدمشقي

اللمن السابع

إنجيل السحر الثاني

أركان العالم* فلماً حان ميلء الزمان أرسل الله ابنته مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس* ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبني.

الإنجيل

(لوقا ١٣: ١٠-١٧)

في ذلك الزمان كان يسوع يعلم في أحد المجامع يوم السبت* وإذا بامرأة بها روح مرض منذ ثماني عشرة سنة وكانت منحنية لا تستطيع أن تنتصب البتة* فلماً رآها يسوع دعاها وقال لها إنك مطلقّة من مرضك* ووضع يديه عليها وفي الحال استقامت ومجدت الله* فأجاب رئيس المجمع وهو مغتاظ لإبراء يسوع في السبت وقال للجمع هي ستّة أيام ينبغي العمل فيها. ففيها تأتون وتستشفون لا في يوم السبت* فأجاب الرب وقال يا مرأئي أليس كل واحد منكم يحل ثوره أو حماره في السبت من المذود وينطلق به فيسقيه* وهذه هي ابنة إبراهيم التي ربطها الشيطان منذ ثماني عشرة سنة أما كان ينبغي أن تطلق من هذا الرباط يوم السبت* ولماً قال هذا خزي كل من

مؤلفاته التي ضمت خصوصاً مصنّفات عقائدية وأناشيد ليتورجية وعظات. اللافت أن الدمشقي انبرى للدفاع عن الأيقونات الموقرة من خارج حدود الإمبراطورية البيزنطية، ما زوده بحرية انتقاد الحكام في القسطنطينية. وقد أكد، على غرار عدد من آباء الكنيسة قبله، عدم أهلية أهل السياسة للنظر في شؤون الإيمان، ما جعل مجمع هياريا (٧٥٤)، الذي حاول ترسيخ العداة للأيقونات، يكيل له أقذع الشتائم.

وضع يوحنا الدمشقي ثلاثة مصنّفات في الدفاع عن الأيقونات. ولعلّ الحجة المركزية التي يستند إليها القديس في دفاعه هي أن نهي الله عن عبادة الأوثان في العهد القديم لا ينطبق على الأيقونات المقدسة التي تصوّر المسيح وأمه وقديسه. فالله الذي كان غير منظور في العهد القديم أصبح منظوراً ومرئياً وقابلاً للتصوير بفضل التجسد، حتى أنه حقق خلاص البشرية جمعاء عبر الطبيعة البشرية المادية التي اتخذها الكلمة بتجسده وضمها إلى ذاته، فصارت جزءاً لا يتجزأ من كيانه: «لا أعبد المادة بل خالق المادة الذي صار مادة من أجلي وارتضى أن يسكن في المادة وعبر المادة حقق خلاصي. ولن أتوقف عن تكريم المادة التي بها تحقق خلاصي». من الملاحظ، إذاً، أن الحجة الأساسية التي يقدمها الدمشقي ضد محاربي الأيقونات حجة خريستولوجية، بمعنى أنها تختص بشخص المسيح وتنطلق من واقعية تجسده. وتشكل هذه الحجة لا مجرد رد على بدعة رفض الأيقونات، بل تصحيحاً مبطناً للفلسفة الأفلاطونية المحدثة التي تحسب أن الله لا يظهر في المادة المرئية إلا

بدرجة أدنى كثيراً من ظهوره في اللامرئيات. طبعاً، ترتبط الحجة الخريستولوجية عند الدمشقي بحجة أخرى أقل منها وقعا مستمدة من الخبرة الإنسانية. إذ يؤكّد القديس حاجة البشر في كل عصر من العصور إلى الصور والرموز، وذلك بالنظر إلى طبيعتهم التي لا تتألف من النفس غير المرئية فحسب، بل تشمل الجسد المرئي أيضاً. من هنا، فإن اللجوء إلى الأيقونات في العبادة يساعد الإنسان المصلي على تجنّب شطط الذهن عبر النظر، بالعينين الملموستين، إلى ذلك العالم الذي تعكسه الأيقونات على نحو رمزي، عالم المسيح وملائكته وأحبائه القديسين الحاضرين سرياً في كل خدمة ليتورجية.

بعد تأكيد هذه القاعدة اللاهوتية التي تبرّر استخدام الصور في الكنيسة، ينطلق الدمشقي إلى التمييز بين العبادة والإكرام. فد«العبادة» لا ترفع إلا لله وحده. أما «الإكرام» فيختص بالأيقونات وبكافة الوسائل المعروفة التي تصوّر بها الكلمة المتجسد (الجدرانيات، التطريز على القماش، المنمنمات على الورق، الحفر في الخشب). ينتج من هذا أن السجود الذي يقوم به المؤمنون، ولا سيما في الليتورجيا، لصور يسوع وأمه والقديسين، هو سجود إكرامي لا سجود عبادي. وهو، في أي حال، لا يتوجّه إلى المادة المستعملة في الأيقونات من خشب وألوان، بل إلى الشخص الذي تصوّره. فموضوع الإكرام، في نهاية المطاف، ليس المادة في ذاتها، بل المادة من حيث أنها ترمز إلى شخص ما (يسوع، مريم، ملاك، قديس) أو إلى حدث ما (الصلب، القيامة).

لقد أتى دفاع القديس يوحنا

كان يُقاومهُ وفرح الجمعُ بجميع الأمور المجيدة التي كانت تصدرُ منه.

تأمل

هذه المرأة تتصف بأن كان بها «روح مرض». لم يتكلم هنا عن خطايا المريضة بل على العكس يطلق عليها لقب «ابنة إبراهيم»، هذا اللقب الذي يطلقه الربانيون على مجمل المجتمع اليهودي. تبدو المرأة تقية لأنه بالرغم من تشوه جسدها بسبب المرض تذهب إلى الاجتماعات الدينية.

لكن المرض بصورة عامة في العهد الجديد مرتبط بالخطيئة بصورة وثيقة. طبعاً لا بمعنى أن كل خطيئة تعاقب حتماً بمرض لاحق، بل بمعنى أن الخطيئة السائدة في العالم من زمن آدم خلقت حالة مرضية تتميز بالفساد، بالمرض وبالموت... «فلما رآها يسوع دعاها وقال لها إنك مطلقّة من مرضك ووضع يديه عليها وفي الحال استقامت ومجدت الله».

لنلاحظ أولاً العبارة «إنك مطلقّة» الآتية في الأصل في صيغة الفعل الماضي التام (المنتهي عمله) أي قد تحررت. يدل حضور المسيا على بداية العهد الجديد الذي فيه

الدمشقي عن الصور المقدسة حاسماً من حيث تبيانه أن قبول الأيقونات أو رفضها إنما يستتبع، في التحليل الأخير، قبول تجسد ابن الله أو رفضه. حتى أن محاربي الأيقونات تنبّهوا لاحقاً إلى هذه النقطة فحاولوا أن يبنوا انتقادهم للأيقونات على حجة خريستولوجية. فاعتبروا أن الأيقونة تجديف على سر التجسد لأنها إما ترسم الطبيعة الإلهية في المسيح، وهذا مستحيل، أو ترسم الطبيعة البشرية فيه، ما يودّي إلى فصل الإلهي عن الإنساني. وقد ساهم آباء كنسيون لاحقون، مثل القديس ثيودوروس الستوديتي، في تطوير حجج القديس الدمشقي. فبينوا أن الأيقونة لا ترسم لا الطبيعة الإلهية ولا الطبيعة الإنسانية في المسيح، بل شخص المسيح الواحد الذي لا مجال فيه لانفصال بين الطبيعتين، كما بين مجمع خلقيدونية (٤٥١). ولكن من الطبيعي أن شخص المسيح بطبيعته لا يبرز للنظر إلا عبر الجسد المرئي، كما أن الطبيعة البشرية، التي تضم أيضاً جوانب غير منظورة كالنفس العاقلة، لا تتموضع في العالم وتبرز للعيان إلا بواسطة الجسد.

لقد ترسخ تعليم يوحنا الدمشقي عن الأيقونات في المجمع المسكوني السابع (٧٨٧) الذي تعتبر صيغته العقائدية مرجعاً لكنائس المسيح جمعاء، بما فيها الكنائس البروتستانتية اللوثرية، في ما يختص بمشروعية استخدام الصور في العبادة.

الحبل بوالدة الإله

«إن السر المستغرب المرموز إليه منذ الدهر، الذي لا تدرك الملائكة والبشر عظمته، اليوم يظهر طفلاً في أحضان حنة العفيفة، أعني به مريم فتاة الله مهياة لسكنى ملك الدهور

لتجديد جبلة جنسنا. فنتوسل إليها بضمير نقي هاتفين: تشفعي بنا إلى ابنك وإلهك، بما أنك شفيعتنا نحن المسيحيين، لكي يخلص نفوسنا» (من صلاة غروب جبل القديسة حنة). تعيد الكنيسة المقدسة في التاسع من كانون الأول لتذكّار جبل القديسة حنة بالعدراء مريم والدة الإله، ولميلاد العذراء في الثامن من أيلول. وبذا تكون فترة الحبل بالعدراء تسعة أشهر إلا يوماً واحداً، وذلك لتدل الكنيسة على بشرية مريم العادية، على عكس بشرية ابنها الإلهية الذي نعيد لعيد البشارة به في ٢٥ آذار ولميلاده في ٢٥ كانون الأول، أي تسعة أشهر بالتمام. الرب يسوع هو الكامل في كل شيء.

لعيد الحبل بالعدراء موقعه ضمن فترة التهيئة لاستقبال الرب المتجسد، والمؤمنون يفرحون إذ أن الحبل بالعدراء يأتي تحقيقاً لوعده الله بخلاص البشر. من حبل بها هي التي ستحمل الإله في أحشائها وتعطيه جسداً بشرياً، ليصير مثلنا كي يخلصنا.

الكنيسة الأرثوذكسية لا تُسمّي عيد الحبل بالعدراء «الحبل بلا دنس» كما تسميه الكنيسة الغربية. حسب عقيدة الحبل بلا دنس الغربية العذراء منزّهة عن الخطيئة الأصلية منذ لحظة الحبل بها من أبويها يواكيم وحنة، وهي غير ملوثة بالخطيئة وطاهرة من كل دنس منذ الحبل بها. الكنيسة الغربية تؤمن بأن الخطيئة الأصلية يتوارثها البشر من جيل إلى جيل عبر الإنجاب، وبالتالي الجميع مسؤول عن خطيئة آدم. لذا كان يجب أن تنزه العذراء من الخطيئة الأصلية لتكون أهلاً لاستقبال الإله المتجسد من الروح القدس في أحشائها. لاهوت الكنيسة الأرثوذكسية يُعلم

لا يعود مكان للمرض والموت كما ان المسيا يقضي على سلطة الشيطان مسبب المرض ويحرر الإنسان من طغيانه.

والجدير بالملاحظة أيضا ان المرأة لا تتوجه إلى يسوع لكي تطلب شفاءها كما حصل مع الأعمى في المقطع السابق ولا يسألها يسوع عن إيمانها كما اعتاد أن يفعل في حوادث عجائبية أخرى ولا قال لها بعد الشفاء «إيمانك خلصك». الرب عرف إيمان المرأة الداخلي بدون حوار معها. ان وضع يدي يسوع عليها يدل حسب اعتقادات العصر على ان قوة الشفاء تنتقل بصورة حسية من الطبيب إلى المريض. ويعتبر الآباء المفسرون حركة يسوع هذه دلالة على صفته البشرية أي انه كإله عن طريق الكلمة حرر المريضة من رباطات الشيطان وكإنسان شفى جسدها بوضع اليدين. نتيجة الشفاء انتصاب المرأة وتمجيدها لله. يتكلم الآباء هنا عن وطأة الخطيئة التي تجعل الإنسان ينحني ويميل إلى الأرضيات والماديات ومن جهة أخرى عن قوة الله التي ترفع الإنسان إلى السماء.

الأستاذ كرافيدوبولوس

ان الإنسان لا يحمل بالولادة الخطيئة الأصلية، لأن آدم مسؤول شخصياً عن خطيئته كما كل واحد منا مسؤول شخصياً عن خطاياها. لكن، بما اننا من صلب آدم وطبيعته، نحن نحمل بالتنازل البشري ما نتج عن خطيئته أي: التعب والجوع والعرق والمرض وأخيراً الموت وفساده أي انحلال الجسد في القبر، كشجرة أصلها مريض، فتكون حينئذ ثمارها مريضة. لسنا مسؤولين عن خطيئة آدم، إنما نحصد ما زرعه آدم لأننا من نسله. الجنس البشري ومريم يحملان نتائج الخطيئة الأصلية. لكن هذا لم يمنع الذين ساروا مع الله في العهد القديم من الجهاد ضد الخطيئة والشر وتجارب الشيطان، كما لم يمنع عنهم نعمة الله التي رافقتهم وظللتهم في مسيرتهم الجهادية. من هنا نفهم قداسة العذراء، لا على ضوء نعمة استثنائية خاصة مُنحت لها عند الحبل بها وكأن لا دور لها على الإطلاق في هذه القداسة، بل على ضوء عمل نعمة الله عبر جهادها الشخصي من أجل الكمال والفضيلة بصمت وتواضع، وأيضاً عبر جهاد أبويها القديسين يواكيم وحنة وكل من سبقوهما من أبرار العهد القديم. قداسة العذراء هي إذا ثمرة قداسة العهد القديم كله المنتظر مجيء المخلص. وقد أعلنت مريم نيابة عن جميعهم «هوذا أنا أمة الرب. ليكن لي كقولك» (لو ١: ٣٨). يقول أحد اللاهوتيين المعاصرين: «لو أفردت السيدة العذراء عن سائر البشر بامتياز من الله يكسبها سلفاً حالة الإنسان ما قبل الخطيئة، لَفَقَدَ عند ذلك قبولها الطوعي للإرادة الإلهية وجوابها لرئيس الملائكة جبرائيل رباط التضامن التاريخي مع سائر الأعمال التي مهّدت، عبر الأجيال، لمجيء المسيح. عندها

لانتقطعت الاستمرارية مع قداسة العهد القديم، هذه القداسة التي جمعت من جيل إلى جيل لتكتمل أخيراً بشخص مريم». لقد رفضت الكنيسة مقولة ان مريم كانت معفاة حتى من نتائج الخطيئة الأصلية عند الحبل بها، لأن هذه الخطيئة لم تقتلع من الإنسانية إلا بشخص الكلمة الإلهي يسوع المسيح. أي انه لا خلاص قبل تجسد الرب. وهذا الخلاص شمل مريم أيضاً كسائر البشر.

نعيد هذا العيد وعيوننا شاخصة نحو عيد ميلاد ربنا حيث يجد عيد الحبل بالعذراء تحقيقه وكماله.

عيد القديس نيقولاوس

بمناسبة عيد القديس نيقولاوس يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الإثنين ٥ كانون الأول ٢٠٠٥ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الثلاثاء ٦ كانون الأول في كنيسة القديس نيقولاوس في الأشرافية.

معرض

تدعو جمعية الشفقة المريمية لمحلتي المزرعة والمصيطة كافة أبناء الأبرشية إلى المشاركة في البازار السنوي للأشغال اليدوية والحرفية والمونة.

يستمر البازار من السبت ٣ كانون الأول ٢٠٠٥ حتى ١١ كانون الأول ما بين العاشرة صباحاً والسادسة مساءً وذلك في بناية جنحو اخوان في المصيطة، قرب المدرسة المعمدانية.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعياً على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb